البنية الحجاجية للخطاب القرآني من منظور لساني– دراسة تداولية–.

The argumentative structure of Quranic discourse from a linguistic perspective - a pragmatic study -.

د. عمر بوقمرة جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف الجزائر

البريد الإلكتروني:Dr .bouguemra@gmail.com

الملخص: تتنوع الخطابات اللسانية بحسب تنوع وظائفها التي أنيطت بها، وغاياتها التي هيئت لها، ولكل نوع منها خصائص وسمات تتمايز بها عن بعضها. وهذا البحث يجتهد في دراسة واحد منها؛ وهو الخطاب الحجاجي؛ وذلك من خلال جمع أهم الخصائص والسمات التي خُصَّ بها دون غيره؛ ليتدرج لاحقا للتأكد من مدى توافرها في الخطاب القرآني؛ مجيبا في النهاية عن السؤال التالي: إلى أي نوع من أنواع الخطاب ينتمي الخطاب القرآني؟ وبعبارة أدقّ: هل الخطاب القرآني خطاب حجاجي؟ مستعينا في ذلك بالمنهجين الوصفي التحليلي والمقارن؛ لمناسبتهما لطبيعة موضوع البحث.

الكلمات المفتاحية: اللغة؛ الخصائص؛ الخطاب؛ القرآن؛ الحجاج.

Abstract: Linguistic discourses varies according to the variety of functions assigned to it, And the targets set for it, and each discourse has its characteristics and features that distinguish it from the other. This research aims to study one from it: it is the argumentative discourse, by collecting the most important characteristics that were found therein without other discourses, to be included later to ascertain their availability in the Qur'anic discourse. Finally, he answered the following question: What kind of discourse is the discourse Quranic? More precisely, is the Qur'anic discourse an argumentative discourse? Using both descriptive and comparative approaches, for their relevance to the nature of the subject.

Keywords: Language, Characteristics, Discourse, Quran, Argumentation.

المنارة للاستشارات

مقدمة: على الرَّغم من رحابة وسَعة مفهوم الحجاج عند ديكرو وأنسكومبر، إذ يعتبران كل قول وظيفته الحجاج، وهذا انطلاقا من قناعتهما أن اللغة ذات بعد حجاجي في جميع مستوياتها، ولا شك أن هذا المذهب فيه نزعة مغالاة، فما الحجاج إلا وظيفة من وظائف اللغة المتشعبة؛ كالوصف، والتعبير، والإشارة، وغيرها؛ ولذلك يرى روبول أن من أنماط الإبداع ما ليس حجاجا، ولا يراد به الإقناع والتأثير في الآخر، "مثل القصيدة الغنائية، والتراجيديا، والميلودراما، والملهاة، والرواية غير التعليمية، والقصص الشعبي، والحكايات العجيبة"[1]. فليس بالضرورة أن يكون الغرض من كل خطاب المحاججة والإقناع، كالخطابات العادية التي يتبادلها الناس فيما بينهم للتعارف ونقل المعلومات، وتبادل التحايا و أحاديث المجاملة، وقد عدّ بلونتين PLONTIN الاعتقاد بأن كل خطاب غايته الحجاج تسرعا، فقال: "من التسرع الاعتقاد أن الخطاب يكون لغاية حجاجية فقط، فهناك كثير من الأقوال نستعملها في شكل عمليات غير حجاجية"[2]. ومن هنا فإن الخطاب الحجاجي يتميز عن باقي الخطابات "بكونه خطابا مبْنِيا وموَجَّها، وهادفا؛ مبنيا بناء استدلاليا يتم فيه اللجوء إلى الحجة والاستدلال والمنطق والعقل، وموَجَّها مسبقا بظروف تداولية تدعو إليها إكراهات قولية، واجتماعية، أو ثقافية، أو علمية، أو عملية، أو سياسية، تتطلب الدفاع عن الرأي أو الانتصار لفكرة... بهدف تعديل فكرة، أو نقد أطروحة، أو جلب اعتقاد، أو دفع انتقاد"[3].

***أولا: أنواع الخطاب عند بنوا:** وزيادة في التنوير والإيضاح نورد أهم تقسيم للنصوص من حيث خصائصها. فقد قسمها بنوا رونو BENOIT RENAUD إلى ستة أقسام وهي:

1 ـ النص الخبري:(INFORMATIF) وهدفه الأساسي التبليغ والإخبار ونشر المعارف.

المنارة للاستشارات

2 ـ النص التحليلي: (ANALYTIQUE) وهدفه الأساسي الفهم القائم على الشرح والتأويل.

3 ـ النص التوجيهي:(EDITORAL) ويتناول قضية ما عامدا إلى بيان ما لها وما عليها، مبرزا محاسن موقف ما ومساوئه، مثيرا للقيم والمبادئ، مذكرا بالتاريخ والثوابت .

4 ـ النص الدراسي: (ESSAI) وهدفه الأساسي البحث في حلول قضايا مختلفة بطريقة جادَّة، ومنهج صارم، وتفكير بنَّاء.

5 ـ نص الرأي: (TEXTE D'OPINION) وهدفه تقويم فكرة ما وتصويبها.

6 ـ النص الحجاجي:(ARGUMENTATIVE) و هدفه إقناع المتلقي بوجهة نظر ما.[4]

ولا نشك أنه التقسيم تقريبي احتمالي، وإلا فيمكن بجهد بسيط أن ندرك التداخل والاحتواء القائم بين كثير من هذه التقسيمات، فقد تُشتم رائحة الحجاج من النص التوجيهي، ونص الرأي، وقد يكون النص التحليلي الذي غايته الفهم مهادا للإقناع؛ لذلك تقول ماري جون بورال (MARIE JEANNE BOREL): "نحن لانضبط حدود الخطابات كما نَحُدُّ أرضا، أو كما نفكك آلة، فالمعايير والقواعد والضوابط التي نُجلِّيها الحيوية، وحيوية الخطاب على وجه مخصوص لا تُفرَض عليه من الخارج"[5]. يضاف إلى ذلك أنّ هذا التقسيم غير احتوائي بمعنى أنّه لم يُخْصِ كلّ النصوص ومنها: الروائي، والقَصَصِيّ، والتراجيدي، وغيرهما.

* **ثانيا : سمات الخطاب الحجاجي عند بيرلمان و تيتيكا**: أعطى بيرلمان وتيتيكا للحجاج خمسة ملامح، ذكرها أوليفي روبول، وهي:1 ـ أن يتوجه إلى مستمع. 2 ـ أن يُعبَّر عنه بلغة طبيعية.

المنارة للاستشارات

3 ـ مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية. 4 ـ ألاّ يفتقر تقدمه (أي تناميه) إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.

5 ـ ليست نتائجه ملزِمة.[6]

أما بنوا رونو فقد حصر سمات الخطاب الحجاجي فيما يلي:

1 ـ القصد المعلن: وهو نية التأثير في المتلقي وإقناعه بفكرة معينة، وهو ما سماه اللسانيون بالوظيفة الإيحائية (CONATIVE).

2 ـ التناغم: وهو أن يقوم النص الحجاجي على منطق ما في مراحل انبنائه وفق تسلسل دقيق، ينُمُّ عن ذكاء صاحبه، وإحاطته الدقيقة بأحوال السامع؛ لذلك نراه يعلن أمرا ويستر آخر، ويطيل هنا، ويوجز هناك، ويقلب الفكرة على أوجه مختلفة؛ فيتجلى في كلامه سحر البيان الموصل إلى التسليم والإذعان.

3 ـ الاستدلال: وهو سياقه العقلي وتطوُّرُه المنطقي، حيث إن النص الحجاجي قائم على البرهنة وفق نظام تترابط عناصره بشكل تفاعلي، تهدف جميعا إلى غاية واحدة، ولا شك أن المراد بالنظام هو اللغة، فلو فككنا النص الحجاجي وأرجعناه إلى بدايته لوجدناه ترتيبا عقليا منطقيا لعناصر اللغة بغية الإقناع.[7] وهناك خصائص أخرى للحجاج نجملها فيما يلي:

1 ـ خاصية التفاعل الحواري: ويتم ذلك وفق مبدأين معرفيين هما: الادِّعاء والاعتراض؛ وهو نوعان:

ـ تفاعل حقيقي بين المتكلم والمستمع؛ بأن يعرض الأول دعواه، ويعترض الثاني عليها.

ـ تفاعل غير حقيقي: وهو أن يحقق كلّ من المتكلم والمستمع نوعا من التزاوج في نفسه، والاستقامة عليه حتى نهاية التفاعل الخطابي وحصول الاتفاق، "والمقصود بتزاوج المتكلم هو الانشقاق الاعتباري لذات المتكلم إلى شِقَّين، أو قل

المنارة للاستشارات

بالأحرى إلى ذاتين: إحداهما ظاهرة تستقل بمبادرة الادِّعاء؛ لأن المتكلم يجيء برأيه في صورة دعوى من عنده يدعيها بمحضر المستمع، والذات الثانية باطنة تشترك مع ذات المستمع في ممارسة الاعتراض؛ لأن المتكلم قد يتعاطى تصور مَواطن النقد في الدعوى، وتقدير مختلف الأسئلة التي يجوز أن يوجهها المستمع إليها"[8]. إذن المقصود بتزاوج المستمع هو الانشقاق الاعتباري أو الافتراضي لذاته، بحيث تصير ذاتين، إحداهما تقوم بمهمة الاعتراض، وأما الأخرى فتشترك مع ذات المتكلم في ممارسة الادعاء، ويمكن أن تزيد هذه الذوات الاعتبارية على اثنين متى تعددت مستويات الكلام.

وينشأ عن هذا التزاوج الافتراضي لذات المتكلم ولذات المستمع ازدواج في جميع أركان التفاعل الخطابي، ازدواج في القصد، وازدواج في التكلم، وازدواج في الاستماع، وازدواج في السياق.[9] وهذا التفاعل يتم عن طريق الحوار بعدّه الشكل الطبيعي للخطاب البشري. إنَّ أهمّ ما يميز الحوار عن بقية الأشكال التعبيرية هو طابعه التبادلي التفاعلي، ومعنى ذلك أنه لا حوار إلا بوجود شخصين على الأقل يتبادلان أطراف الحديث "متتابعة ومتسلسلة يكون كل حديث تابعا لحديث سابق، ومنشِئا لحديث لاحق، وهو ما نقصده بعبارة (يتجاذبان أطراف الحديث)، بمعنى إن إسهام كل طرف خاضع لما قاله الطرف الآخر فيما سبق"[10]. يمكن القول إن الانشقاق الاعتباري هو حوار داخلي (مونولوج) المتكلم فيه هو المخاطَب نفسه، والمخاطَب هو المتكلم نفسه، والمدعي هو المعترِض نفسه، كما أن المعترض هو المدعي نفسه،"وتكمن أهمية التفاعل المباشر وغير المباشر بين المتكلم والمخاطَب في أهمية الالتزام بأرضية مشتركة بينهما، تضم كل الإمكانات الخطابية الخاصة بمقام معين مراعية فيه اعتقادات المتكلم والمخاطَب وجميع أحوالهما"[11].

2 ـ خاصية الاستنهاض إلى العمل: الخطاب الحجاجي خطاب غائي وموجَّه، يهدف إلى إقناع المتلقي بما يحمله من أفكار، أو زيادة الإذعان، "فأنجح

المنارة للاستشارات

حجة هي تلك التي تنجح في تقوية حِدَّة الإذعان عند من يسمعها، وبطريقة تدفعه إلى المبادرة سواء بالإقدام على العمل أو بالإحجام عنه، أو هي على الأقل ما تحقق الرغبة عند المرسَل إليه في أن يقوم بالعمل في اللحظة الملائمة"[12]. إن تأثير القول الحجاجي عادة ما يدفع إلى ردود فعل معينة، قد تكون عملا، أو تركا، أو عدولا، وهذا العمل هو الذي يؤكد فعلا حصول قناعة معينة.[13] وقد سمى طه عبد الرحمن هذه الخاصية بـ "مبدأ الإنهاض إلى العمل"؛ ومفاده أن إدراك الحكمة تجلب العمل، ومن دخل في العمل فقد زاد عقله، وسعى للقيام به على أحسن وجه وأكمله، وذلك بداعي الاقتداء بمن هو أحكم للعمل.[14] لقد اتضح من كلام طه عبد الرحمن أن حصول الاقتناع لدى المستمع لا يحصل إلا بمطابقة القول الحجاجي لفعل صاحبه، لكي يحصل الاقتداء والتأسي، وفي حال عدم متابعة الفعل للقول وتزكيته له، يصير القول الحجاجي حجة على صاحبه، فالرجل السياسي الذي يدّعي الليبرالية حين تخالف أعماله مبادئه يعترض عليه المستمع قائلا: وأين أنت من الليبرالية، وأنت تمارس الإقطاعية والعبودية في حياتك.[15]

3 ـ خاصية الاعتقاد: على الرغم من أن الاعتقادات هي أفكار وتصورات خلت من الاستدلال العلمي البرهاني، فإن استهدافها من قبل المتحاجّين بات جانبا أساسيا في العملية التواصلية التخاطبية، "حيث تقوم بدور المسلمات أو المبرهنات كما في الرياضيات، لا تقبل النقاش والجدال في كثير من الأحيان، ولا تخضع للتحليل العلمي والتمحيص الدقيق، ولا تقوم على قواعد مضبوطة، بقدر ما تقوم على أنساق فكرية، وعلل تمتزج فيها الأقوال بالأفعال، والمبادئ بالمسلمات"[16]. وقد تصدى الفلاسفة من قديم الزمان لدراسة موضوعات غامضة، وطرق فهمها ليست معبدة ولا ميسورة؛ مما يؤدي إلى اختلاف الناس، وقد مثّل أفلاطون بمجموعة عميان انطلقوا إلى فيل، وأخذ كلٌّ منهم جارحة منه، فجَسَّها بيده، ومثَّلَها في نفسه، فالذي مس

المنارة للاستشارات

الرِجل اعتقد أن خِلقة الفيل طويلة ومستديرة كجذع الشجرة، واعتقد الذي مس الظهر أن خلقته تشبه الهضبة العالية والرابية المرتفعة، واعتقد الذي مس الأذن أنه دقيق ومنبسط يُطْوَى ويُنشَر.[17] إن علاقة الحجاج بالإيديولوجيا أصبحت واضحة ووطيدة، فإذا كانت الإيديولوجيا شريعة تقوم على نظرة شاملة وكاملة، لا تهم مجموعة بشرية معينة فحسب، بل تتعداها إلى الكون برمته، وهذه السمة التشريعية للإيديولوجيا ملازمة لوظيفتها التبريرية، وقدرتها على التغيير لا تبقى قائمة إلا متى تحولت الأفكار التي تبثها إلى معتقدات"[18]. وهذا الدور التبريري للإيديولوجيا لا يقوم إلا عبر تقنية الحجاج.

***ثالثا: حجاجية االخطاب القرآني**: سنحاول تحت هذا العنوان البحث عن مدى توفر خصائص النص الحجاجي التي ذكرناها آنفا داخل الخطاب القرآني[19]؛ لنصل في الأخير إلى جواب سؤاله مفاده: هل القرآن خطاب حجاجي؟ أو بعبارة أخرى إلى أي قسم من أقسام النصوص ينتمي الخطاب القرآني؟ للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها لابد من تتبع تلك الخصائص التي ذكرها كل من بيرلمان وتيتيكا، وأوليفي روبول وطه عبد الرحمن، وغيرهم في القرآن الكريم.

1 ـ المخاطَب في القرآن الكريم: لقد جعل بيرلمان وزميلته أوَّل ملمح من ملامح الحجاج هو أن يتوجه إلى مستمع مؤهل لاستيعاب هذا الطرح وتنميته؛ لأنه مستهدف بالتأثير والإقناع، ولكن المستمع في بلاغة بيرلمان ـ البلاغة الجديدة ـ يختلف عنه في البلاغة الكلاسيكية كونه إيجابيا، أي له القدرة على الاعتراض والرد والتفنيد، ويقابله المستمع السلبي الذي ينقاد لحجج الخصم بسهولة، ودون أدنى درجة من المقاومة و المحاججة.[20] إن القرآن خطاب، وكونه كذلك يقتضي أنه إقناع وتأثير، وبعبارة شرعية دعوة وهداية، والمخاطَبون فيه نوعان بحسب الذكر وعدمه:

المنارة للاستشارات

نوع مذكور داخل الخطاب القرآني (جمهور خاص)، وهو قسمان أيضا: **قسم مذكور باسمه ولقبه، أو بضمير الخطاب الدال عليه**، كقوله تعالى: ﴿ **ياأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم** ﴾[21]. وقوله تعالى:﴿**ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا** ﴾[22]. وقوله تعالى: ﴿ **يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين** ﴾[23]. **وقسم مذكور لكنه غير محدد ولا معين**، عادة ما يستعمل له ضمير المخاطَب المفرد، مثل قوله تعالى: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا**﴾[24]، وقوله: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا** ﴾[25]. هذا على رأي من اعتبر الخطاب لغير معين؛ لأنه قد يكون المخاطَب هنا هو الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ ولذلك رأى ابن عاشور أن الخطاب في "ترى" للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو كل من تحصل منه الرؤية فلا تخص مخاطَبا معينا.

أما النوع الثاني من المخاطَبين فيقع خارج الخطاب القرآني، أي أنه غير مذكور، ولكنه مع ذلك مستهدف بالخطاب، وهم جمهور السامعين عبر الأعصر والأمكنة، وهو ما سماه بيرلمان بالجمهور الكوني، بخلاف الجمهور الخاص في النوع سابق الذكر.[26] وهناك تقسيم آخر للمخاطَبين قائم على أساس الاستجابة من عدمها حسب وجهة نظر علماء الإسلام، وهو نوعان:

ـ **أمَّة الاستجابة**: وهم كل من استجاب لدعوة الرسل وأناب إلى ربه، ويمكن أن نسميه بـ :(الجمهور الخاص) تماشيا مع بيرلمان.

ـ **أمَّة الدعوة**: وهم الجمهور المقصود بالخطاب الرباني من عرب وعجم في جميع الأزمنة والأمكنة، وهو ما يقابل الجمهور الكوني عند بيرلمان. قال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا** ﴾[27]. ولذلك قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الحديث الذي رواه مسلم: "والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه

المنارة للاستشارات

الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار"[28]. فخطاب أمة الاستجابة يكون بـ: "يا أيها الذين آمنوا"، وخطاب أمة الدعوة يكون بـ "يا أيها الناس" و "يا أيها الكافرون"، ويجب التنبيه إلى أنَّ أمة الاستجابة لا تسلم من مطالبتها بالاقتناع والإذعان باستجابتها، بل تبقى دوما مقصودة بفعل الحجاج ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم** ﴾[29]. وقوله:﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق الصوت النبي ولا تجهروا له بالقول**﴾[30]. وقوله:﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾[31]. إنه حجاج من نوع آخر غرضه زيادة درجة الإذعان، وتوجيه السلوك، وما يتوافق مع تلك الأفكار التي آمن بها في أوَّل دخوله عتبة الإسلام، وإذا كان بيرلمان يصف السامع الشديد الاعتراض والعناد بالإيجابي، فإن الإسلام يعكس القضية لذلك كان من فضائل أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أنه لما دُعِيَ إلى الإسلام ما كبا ولا نبا ولا تردد، وكيف لأصحاب الفطر السليمة أن يتلعثموا إذا دعوا إلى خير.[32] بقي في الأخير أن نشير إلى أن جمهور الرسل غير جمهور الأنبياء ـ عليهم صلوات ربي وسلامه جميعا ـ خاصة ـ عند من فرق بينهما بأن جعل النبي هو من بعث إلى قومه خاصة، والرسول هو من بعث إلى الناس كافَّة، وعليه يكون للنبي جمهور خاص (قومه) في زمن خاص، في حين يكون للرسول جمهوران: جمهور خاص وجمهور كوني.

2 ـ القرآن واللغة الطبيعية: الملمح الثاني للحجاج عند بيرلمان هو أن يعبر عنه بلغة طبيعية، وتوفر هذه الخصيصة في الخطاب القرآني شيء لا يختلف فيه اثنان، ولا يتحاجُّ فيه متحاجَّان.لقد اعتاد الناس في الأنبياء من قبل أن يؤيَّدوا بمعجزات حسِّية تكون دليلا على نبوتهم وتأييدا لدعوتهم، فالنبي عيسى ـ عليه السلام ـ مثلا أيَّده الله بعدة معجزات، منها إحياء الموتى، وإبراء الأعمى والأبرص. قال تعالى:

المنارة للاستشارات

﴿**وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني**﴾[33].

لكن معجزة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مغايرة لما ألفوه وعهدوه، فهي معجزة عقلية اتحدت فيها الدعوى مع الشاهد، فالقرآن كلام الله، والدليل على ذلك هو إعجازه، فشاهده منه ولا يحتاج إلى دليل مغاير له وخارج عنه. يقول ابن خلدون: "إن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة، القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو نفسه الوحي المُدَّعى، وهو الخارق المعجز، فشاهده في عينه، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات من الوحي، فهو أوضح دلالة لاتِّحاد الدال والمدلول فيه"[34]. ويقول مصطفى صادق الرافعي: "وأي شيء في تاريخ الأمم أعجب من نشأة لغوية تنتهي بمعجزة لغوية؛ ثم يكون الدين والعلم والسياسة وسائر مقومات الأمَّة تنطوي على هذه المعجزة، وتأتي به على أكمل وجوهها وأحسنها، وتخرج به للدهر خير أمة كان عملها في الأمم صورة أخرى من تلك المعجزة"[35].

3 ـ هل القرآن نتائجه ملزمة؟ من أهم ملامح الحجاج عند بيرلمان أن نتائجه ليست حتمية ولا إلزامية، وهذا طلبا منه للحرية المطلقة، ونبذا للعنف والإكراه، والمتصفح لكتاب الله يجده ينضح بآيات كثيرة تدعو إلى الجدال بالتي هي أحسن، وإلى الرفق واللين حتى مع من ادَّعى الربوبية. قال تعالى:﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾[36]. وقال لموسى وأخيه هارون:﴿**اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾[37]. بل فيه دعوة صريحة اللفظ واضحة المعنى إلى نبذ الإكراه والسيطرة، وفي أعظم مسألة من مسائل الدين وأخطرها ألا وهي مسألة العقيدة والإيمان. قال تعالى:﴿**لا**

المنارة للاستشارات

إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[38]. يقول ابن عاشور في تفسيرها:"ونفي الإكراه خبر في معنى النهي، والمراد نفي أسباب الإكراه في حكم الإسلام، أي لا تكرهوا أحدا على اتباع الإسلام قسرا، وجيء بنفي الجنس لقصد العموم نصا، وهي دليل واضح على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه؛ لأن أمر الإيمان يجري على الاستدلال والتمكين من النظر وبالاختيار"[39]. وقال ابن كثير:" أي لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحدا على الدخول فيه"[40]. وقال تعالى لرسوله:﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا**﴾[41]. وقال له أيضا:﴿**لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر**﴾[42].

وقد امتثل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر ربه في دعوته أحسن امتثال وأفضله، وهنا قد يعترض معترِض فيقول: إذا كان حجاج القرآن نتائجه غير ملزمة، ودليله ما فُسِرَت به آية الإكراه في الدين سابقة الذكر، فلم شرع القتال؟ أليس هو أعلى مراتب العنف وأعتاها؟ أليس هو نقيض الحوار والجدال؟ للإجابة عن هذه الأسئلة، أو بالأحرى تفنيد هذه الشبهات لابد من البحث أولا في قضية الإذن بالقتال، فكما هو معلوم عند أصحاب السير والمغازي أن المؤمنين قبل الهجرة نُهُوا عن قتال الكفار، ففي بيعة العقبة الثانية في السنة الثالثة عشرة من النبوة، قال العباس ابن عبادة ابن نضلة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنَّ على أهل مِنًى غدا بأسيافنا " فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم، فرجعوا فناموا حتى أصبحوا"[43]. ولما اشتد أذى قريش للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ أُمِرُوا بالهجرة إلى طَيْبَة ـ زادها الله طيبا ـ فأرسلت قريش تقول لهم: "لا يغرنَّكم أنّكم أفلتمونا إلى يثرب فسنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم"[44]. بل وصل الأمر

المنارة للاستشارات

إلى حد تهديد شخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصار الصحابة لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، وفي هذه الظروف الصعبة أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين، ولم يفرضه عليهم فقال: ﴿**أذن للين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير**﴾[45].وأنزل هذه الآية ضمن آيات أرشدتهم إلى أن هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل، وإقامة شعائر الله"[46].

وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما جاء في صحيح مسلم وغيره ـ إذا أمّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه بالتقوى في خاصة نفسه، ومَن تحت إمرته، ثم قال: "اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيَّتهنَّ ما أجابوك فاقبل منهم وكفَّ، عنهم: ادعهم إلى الإسلام... فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم؛ وإن هم أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم ..."[47]. وفي الحديث فائدتان هما:

1 ـ وجوب تقديم الدعوة قبل القتال لمن لم تبلغهم الدعوة[48]على مذهب الجمهور.

2 ـ أن يُخَيَّر العدو بين ثلاث خصال وهي: إما الإسلام، وإما دفع الجزية، وإمّا الحرب، ومعنى الجزية أن يُقَرَّ العدوّ على ديانته ـ عدا الشرك ـ من يهودية أو نصرانية مع دفع مبلغ مالي لخزينة المسلمين، مقابل الحماية التي ينعمون بها تحت راية الإسلام. بعد هذا كله نعود فنقول: إنّما شرع القتال لتأمين حرية المعتقد، وفتح باب الحوار بين أهل الحق وأهل الباطل، حتى يتمكن أهل الحق من عرض مبادئهم وأفكارهم. "إن الحروب الدامية التي جرت بين المسلمين وبين أعدائهم، لم تكن أهدافها بالنسبة للمسلمين مصادرة الأموال وإبادة الأرواح، وإفناء الناس، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام، وإنما كان الهدف الوحيد الذي يهدفه المسلمون من هذه

المنارة للاستشارات

الحروب، هو الحرية الكاملة للناس في العقيدة والدين ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومنت شاء فليكفر**﴾[49] لا يحول بينهم وبين ما يريدون أيّ قوة من القوات..."[50].

4 – القصد المعلن: إن دعوة أنبياء الله ورسله جميعا واحدة، ألا وهي إفراد الله بالعبادة. قال تعالى لنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ:﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾[51]. فما بُعِثَ رسول إلى قومه إلا كان شعاره ﴿**يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾[52]، فالعبادة هي الغاية من خلق الثقلين: الإنس والجن؛ لذلك قال تعالى:﴿ **وما خلقت والجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[53]. والعبادة كما عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية: "هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر... وأمثال ذلك من العبادات، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله"[54]. فدعوات الأنبياء جميعا قصدها معلن، وهو البحث عن إقناع البشرية جميعا بفكرة التوحيد وإفراد الله بالعبودية، وهي فكرة ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال، منذ أن حدث الشرك بعد آدم عليه السلام بعشرة قرون كما جاء في أثر ابن عباس: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على التوحيد"[55].

ومعنى هذا أن الشرك أول ما وقع بعد آدم في قوم نوح، وسببه تعظيم قبور الصاحين والغلو فيهم، ومن ثم العكوف عليها وعبادتها. قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿**وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ وَدّا ولاسواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا**﴾[56]. قال: "كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوَّرناهم كان أشْوَقَ لنا إلى

المنارة للاستشارات

العبادة إذا ذكرناهم؛ فصوّروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسْقَوْن المطر فعبدوهم"[57]. فأرسل الله إليهم نوحا عليه السلام فقال: ﴿ **لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾[58]. وهذا الثبات في القصد المعلن لم يتغير حتى في حالات الإكراه والاستضعاف، فاستهزئ بنوح، وألقي إبراهيم في النار، وأخرج محمد من الديار صلوات ربي وسلامه عليهم جميعا، وهم على إعلان دعوتهم ثابتون صابرون . إذن قصد الأنبياء والرسل معلن بيّن ثابت لا يتغير حتى بتغير المصالح، فمصلحة التوحيد ليس فوقها مصلحة؛ ولذلك لما عرض على نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعض المزايا الدنيوية مقابل ترك دعوته، قال: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته"[59]، وكيف يترك أوّل مقصد من مقاصد الشريعة ألا وهو حفظ الدين.

5 – خاصية الاعتقاد: إن أوَّل ما تهدف إليه الديانات هو عقائد الناس بقصد تغيرها وإصلاحها؛ لأن الشرائع تقوم على العقائد فإن صلحت العقائد صلحت الشرائع (الأعمال)، وإن فسدت فسدت، فالعقائد علم، والشرائع عمل. قال تعالى:﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات**﴾[60]، فجاء الاستغفار وهو عمل بعد العلم، وهو اعتقاد بوحدانية، وقد مكث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثة عشر عاما بمكة يدعو إلى توحيد الله في ألوهيته وإفراده بالعبادة دون غيره من الآلهة، وأنها لا تنفع ولا تضر ولا تحيي ولا تميت، ومن شأنه كذلك لا يصلح أن تصرف له العبادة أو أن يشرك معه فيها، إذن فالقناعة بالفكرة هي الدافع إلى العمل، ومن قام بعمل ما ظاهرا وهو غير مقتنع به في داخله وباطنه فهو مخادع وسماه القرآن الكريم منافقا، وهو أسوأ حالا من الكفار الصرحاء. إنَّ من أصول أهل السنة أن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية "والفرق بين أقوال القلب وبين أعماله: أن أقواله

المنارة للاستشارات

هي العقائد التي يعترف بها القلب ويعتقدها، وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها الله ورسوله... وهذه الأعمال القلبية تنشأ عنها أعمال الجوارح"[61] من صلاة وزكاة وذكر وقراءة قرآن وغيرها، فنلاحظ في أصل أهل السنة سابق الذكر ما يلي:

1 ـ أنَّ الاعتقاد هو مقصود الحجاج القرآني، و موطنه القلب، أي هو اعتراف وإذعان القلب بالفكرة أو المبدأ، لكن قد يعترض معترض فيقول: إن بيرلمان وتيتيكا عرَّفا الحجاج بإذعان العقول وأنت تقول إذعان القلب، فأقول قد اختلف العلماء في موطن العقل، فقيل في الرأس وقيل في القلب، وهو قول جمهور العلماء، قال صلى الله عيه وسلم: "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"[62]، والمقصود بصلاح الجسد هو الانتهاض للقيام ـ الخاصية الموالية ـ بالأعمال الظاهرة، وهذا ما سماه بيرلمان المبادرة بالإقدام على العمل.

2 ـ أنَّ الترابط بين الاعتقاد والعمل سماه علماء السنة بـ "تلازم الباطن والظاهر". قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذه الأمور الظاهرة والباطنة بينهما ـ ولا بد ـ ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال، يوجب أمورا ظاهرة من أقوال وأفعال، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعورا وأحوالا"[63].

3 ـ في قولهم عن الإيمان ـ الاعتقاد ـ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية إشارة واضحة إلى تفاوت درجات الإذعان، ولذلك كان المؤمنون ثلاث طبقات، فمنهم السابق بالخيرات، ومنهم المقتصد، ومنهم الظالم لنفسه. قال تعالى: ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم ومقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾[64].

قد يستهدف الحجاج مذعنا (مؤمنا) بغرض زيادة حدة الإذعان، وهذا ما قصده بيرلمان في تعريفه السابق للحجاج: "فأنجح حجة هي التي تنجح في تقوية حدة

المنارة للاستشارات

الإذعان عند من يسمعها"، وهذا ما يعرف عند المسلمين بالوعظ والتذكير "فالمستمع في الخطابة الوعظية موضوع موضع الغافل المقَصِّر فيما يجب عليه، والقابل الذي عنده نوع من غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة"[65]. إن علاقة حجاج القرآن الكريم بالمعتقد أصلية ثابتة لا تتغير، فإذا كانت العقيدة شريعة كونية نظرتها شاملة وعامَّة تهمُّ البشرية جميعا، وظيفتها التبرير والقدرة على التغيير، فإنها لا تستمر إلا إذا تحولت الأفكار إلى معتقدات، والمعتقدات إلى أعمال، وهذا هو بحثنا القابل.

6- خاصية الاستنهاض إلى العمل: إن العقيدة التي لا تدفع حامليها إلى العمل بها وتجسيدها تبقى مجرد أفكار خاملة، وقد يتهم أصحابها بخيانة المبادئ والنفاق.قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون** ﴾[66]. وقال: ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** ﴾[67]. فالآية الأولى نزلت ـ على رأي الجمهور ـ في قوم تمنَّوا فريضة الجهاد عليهم فلما فرِضت نكل عنه بعضهم"[68]. أما الثانية نزلت في قوم زعموا حب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حين هم مخالفون له؛ فامتحنهم الله بهذه الآية، فالإذعان يدفع المتلقي إلى المبادرة بالفعل أو الترك، وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: وهل الترك فعل؟نعم الترك فعل عند علماء أصول الفقه، مستدلين في ذلك بقوله تعالى في بني إسرائيل:﴿**كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾[69]، حيث سمَّى الله عدم تناهيهم عن المنكر فعلا، وقوله تعالى أيضا: ﴿**وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا**﴾[70]. والأخذ هو التناول والمهجور هو المتروك، فصار المعنى تناولوه متروكا؛ أي فعلوا تركه[71]. أما في اللغة فدليله قول الراجز:

لئن قعدنا والنبي يعملُ لذاك منّا العملُ المضلَّلُ.

المنارة للاستشارات

فقعود الصحابة عن الاشتغال ببناء المسجد النبوي هو عمل مضلَّل، والقعود ترك، فدل ذلك على أن الترك فعل.[72] فالمحاجِج الذي يدعو إلى فكرة ما، يحاول إقناع مخاَطَبيه بها دون أن يطابق فعله قوله كي يحصل الاقتداء والتأسي، لن يجلب على نفسه سوى الهزء والسخرية والإعراض والنفور، فالذي يدعو الناس إلى الإنفاق وهم يرون منه شحا هالعا، أو يدعوهم إلى الرفق واللين، وهم يرونه فظا غليظا؛ لاشك أن جوابهم هو فابدأ بنفسك فإن نهيتها عن غيّها فأنت حكيم، وقد قال شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن اريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله**﴾[73]. فكأنه صار عندنا حجاجان، حجاج بالقول، وحجاج بالفعل يُدْرَكُ عن طريق الملاحظة؛ ولذلك صار في هذا العصر الإشهار بواسطة الصورة من أخطر أنواعه وأفتكها، خاصة إذا صاحبه إغراء جذاب وخادع في آن.

بقيت نقطة واحدة من تعريف بيرلمان للحجاج وهي التهيؤ للقيام بالعمل في اللحظة الملائمة، فالسياسي مثلا قد يقنع جمهورا ما ببرنامجه، مما يجعله مهيئا للعمل متى حانت الفرصة كموعد انتخابي، أو تجمع شعبي، وما شابه ذلك، والقرآن الكريم قد يقنع المشركين بفكرة التوحيد، فيذعنون له ويأتون بكلمة التوحيد ـ **لا إله إلا الله** ـ التي تقتضي منهم الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، وغيرها من العبادات، ولكن ليس كل العبادات يؤتى بها بعد التشهد مباشرة، فبعضها لها شروط زمانية ومكانية، فالزكاة مثلا تجب ببلوغ النصاب وحولان الحول، والحج يجب مع القدرة والاستطاعة في زمان ومكان خاصين، والصيام يجب مع الاستطاعة والإقامة في زمان خاص، ألا وهو شهر رمضان المبارك، وهكذا.

لقد آن لنا أن نجيب عن ذلك السؤال الذي طرحناه في بداية حديثنا عن مدى تهيؤ القرآن لأن يكون حجاجا في مواجهة أصناف مخاطَبيه. فنقول: تأكّد لنا

المنارة للاستشارات

من خلال وقوفنا على أهم خصائص ومميزات النص الحجاجي، ومدى توفرها في النص القرآني، أنه نص حجاجي، ولكن ذلك لا يعني الخوض في معانيه الحجاجية دون حدود ولا ضوابط؛كيف "وللقرآن من المعاني ما لا يمكن أن يقف بالمؤوِّل، أو يقف به المؤوِّل عند حدّ، وله أسباب نزول لابد من معرفتها، وفيه المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والمقدَّم والمؤَخَّر، والوجوه والنظائر، والحقيقة والمجاز، والإطناب والإيجاز، والمكي والمدني، وفيه الغريب والمبهم... وهو فوق ذلك أنزل على أكثر من حرف"[74]. إن قدسية القرآن الكريم تحتم علينا الرجوع إلى كتب التفاسير، وفي مقدمتها التفاسير القديمة، لأنها تستعين في ذلك بالمأثور، كتفسير ابن كثير، والقرطبي، والطبري، والزمخشري لنكته اللغوية والبلاغية، ثم كتب المتأخرين وعلى رأسها ابن عاشور في تفسيره لأنه لغوي بالدرجة الأولى، مع الإشارة إلى أن هذه الاستعانة في تحديد المعنى، ستكون من منظور الأطروحة التي نناقشها، وهي حجاجية النص القرآني.

7- مسلك القرآن الحجاجي: قال تعالى: ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾[75]. وإذا كانت الحكمة هي وضع الشيء في موضعه، فإنه من الحكمة في الحجاج والاستدلال مراعاة حال المخاطَب، فلا يخاطَب العالم بما يخاطَب به الجاهل، ولا الجاهل بما يخاطَب به العالم؛ وعلى هذا الأساس ـ مقتضى الحال ـ جعل علماء البلاغة العرب أضرب الخبر ثلاثة، كلٌّ واحد منها يصلح لصنف معين من المخاطَبين؛ وهي:

1 ـ الخبر الابتدائي: ويكون خاليا من المؤكدات؛ لأن مخاطَبه خالي الذهن من الحكم.

2 ـ الخبر الطلبي: ويستحسن أن يلقى مؤكدا؛ لأن مخاطَبه شاك متردد.

المنارة للاستشارات

3 ـ الخبر الإنكاري: يجب أن يؤكد بمؤَّكد فأكثر بحسب شدة الإنكار؛ لأن مخاطَبه منكر للحكم[76].

يقول أبو هلال العسكري: "وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطَب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عمَّا يعرفه إلى ما لا يعرفه؛ فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب"[77]. وقد ينزل كل واحد منهم ـ المخاطَبين ـ منزلة الآخر، كأن ينزل خالي الذهن منزلة الشاك المتردد، أو خالي الذهن منزلة المنكر، وهو ما سماه البلاغيون خروج الخبر على مقتضى ظاهر الحال.[78] فأي مسلك سلكه القرآن الكريم للاحتجاج والاستدلال على ما جاء به من آيات بيّنات، وحق مبين، أسلك مسلك المنطق والبرهان؟ أم مسلك الخطابة والتأثير والبيان؟ أم مسلك الجدل والإلزام؟[79] لقد أدت دراسة الخطاب حسب المخاطبين وأحوالهم إلى الاختلاف بين دارسي الخطاب القرآني من الفلاسفة المتشبعين بالفلسفة اليونانية، والأصوليين، فنجد الفيلسوف ابن رشد يقول:" فالناس في الشريعة على ثلاثة أصناف، صنف ليس هو من أهل التأويل أصلا، وهم الخطابيون الذين هم الجمهور الغالب، وذلك أنه ليس يوجد أحد سليم العقل تعرَّى من هذا النوع من التصديق، وصنف هو من أهل التأويل الجدلي، وهؤلاء هم الجدليون بالطبع فقط، أو بالطبع والعادة، وصنف هو من أهل التأويل اليقيني وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة"[80]. ولما كان الشرع هدفه الأول العناية بالأكثر، من غير إهمال للخواص كانت المسالك المصرح بها في الشريعة هي الأكثر اشتراكا.[82]

وقد أثارت هذه الآراء ردود فعل قاسية من الأصوليين الإسلاميين، حيث رأوا في ذلك انقيادا واضحا للفلسفة اليونانية. قال ابن قيم الجوزية: "ويظن جهّال المنطقيين، وفروخ اليونان أن الشريعة خطاب للجمهور ولا احتجاج فيها، وأن الأنبياء

المنارة للاستشارات

دعوا الجمهور بالخطابة، والحجج للخواص، وهم أهل البرهان، يعنون أنفسهم ومن سلك طريقهم، وكل هذا من جهلهم بالقرآن، فإن القرآن مملوء بالحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد، وإثبات الصانع والمعاد"[82]. والحق أن أسلوب القرآن أسمى من المنطق، وأسمى من الخطابة، فكما تراه قد اعتمد على الأمور المحسوسة والبديهة التي لا مراء فيها ولا جدال، " تراه قد تحلل من بعض قيود المنطق التي تتعلق بالأقيسة وأنماطها، والقضايا وأشكالها، من غير أن يخل ذلك بدقة التصوير وإحكام التحقيق، وصدق كل ما اشتمل عليه من مقدمات ونتائج في أحكام العقل، وثمرات المنطق؛ ولهذا نحن لا نعد أسلوب القرآن الكريم منطقا، وإن كان فيه صدقه وتحقيقه، وهو إلى الأسلوب الخطابي أقرب، وإن كان كله حقا لا ريب فيه لأنه تنزيل من حكيم حميد"[83].

الخاتمة: القرآن أولا وقبل كل شيء كتاب هداية للبشرية جمعاء بكلِّ أطيافها؛ عربيّهم، وعجميّهم، حضريّهم وبدوّيهم، فهو أسلوب متفرِّد لأنّه من عند الواحد الأحد، آياته مملوءة بالحجج والبراهين في مسائل التوحيد، والشرائع، وإثبات الصانع، وبها قامت الحجة على خلقه الأوّلين والآخرين إلى يوم الدين، ولو كان منطقا ماقامت الحجة إلا على من أوتي علم المنطق. والله يقول في كتابه الحكيم: ﴿**ومأرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**﴾ (سورة سبأ 28)، وهذا يبطل قول ابن رشد ومن على شاكلته من الفلاسفة في تقسيم الناس في تلقيهم للخطاب القرآني إلى ثلاثة أصناف: خطابيون ليسوا من أهل التأويل وهم الأكثر، وتأويليون جدليون بالعادة، وتأويليون يقينيون بالطبع والصناعة. والحق أن القرآن أسمى من المنطق، ومن الخطابة، ومن الشعر، والله قد تحدّى أهل مكة ومن ورائهم العالم كله، وهم لا علم لهم بالمنطق، وإنما كان علمهم النطق؛ أي الفصاحة والبلاغة في نثرهم وشعرهم، وما الخطابة إلا نوع من أنواع خطاباتهم المختلفة، وقد تحداهم الله عز وجل أن يأتوا بعشر

المنارة للاستشارات

سور مثله في النظم والتركيب، غير مشترط عليهم الحقيقة العلمية فأبلسوا. قال تعالى: ﴿ **قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ودعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾ (سورة هود 13)، فهو ليس منطقا – حتما- وإن وجدنا فيه ما يراه المناطقة تصديقا لأقيستهم.

وهو أسمى من الخطابة والشعر وإن كان بالألفاظ العربية، وقواعدها الصرفية والتركيبية، إلا أنه يسمو عليهما بأسلوبه المتفرد الذي أعجزهم عن مجاراته، أُشبع بالبراهين والحجج على أنه من عند الله العزيز الحميد؛ المتفرد بالخلق والملك والتدبير، المستحق للعبادة وحده لاشريك له، المتصف بصفات الكمال والجلال؛ وتلك الموضوعات الكبرى التي دأب القرآن على إبداء القول فيها وإعادته؛ تارة بإيراد الحجج، وأخري بالإخبار، وثالثة بسرد قصص الأولين؛ ما يجعلنا نجزم أن الخطاب القرآني قد وردت فيه أنواع شتى من الخطابات؛ منها الإخباري، ومنها القصصي، ومنها الحجاجي، وغيرها، بحسب اصطلاحات الدراسات الحداثية، وإن كنا نحبذ مصطلح تنوع الأساليب تهيبا من الوقوع في محاذير شرعية؛ ولأن الخطاب القرآني كله من الناس إلى الفاتحة خطاب واحد، تعددت أساليبه لحكم بلاغية يعرفها أهل الاختصاص من المفسرين والبلاغيين وغيرهم. ولربما مايشفع لنا الحكم بحجاجية الخطاب القرأني أمران: أولهما أنه كتاب هداية؛ أي هداية الناس إلى دينه القويم؛ ولايتم ذلك إلا بالحجاج والبرهنة، وثانيهما أن الأساليب الخبرية والقصصية هي في الحقيقة حجج كبرى تخدم القضية المركزية فيه؛ وهي هداية الناس إلى الإيمان والتوحيد، وقد أثبتت هذه الدراسة اتصاف الخطاب القرآني بكل الخصائص والسمات التي أوردها اللسانيون عموما وعلماء اللسانيات الحجاجية وتحليل الخطاب خصوصا.

المنارة للاستشارات

الهوامش:

[1] عبد الله صولة : الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، د–ط، جامعة منوبة، تونس، كلية منوبة، عام 2001م، الجزء الأوّل، ص 43.

[2]عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، د–ط، إفريقيا الشرق، المغرب، عام2006م، ص .128

[3]عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج ، ص 128.

[4] RENAUD BENOIT: LE TEXTE ARGUMENTE, EDITION, LE GRIFFON D'ARGILE, QUEBEC, 1999, P. P 10 -16.

[5] سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثامن، بنيته وأساليبه، الطبعة الأولى، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، إربد ـ الأردن، جدار للكتاب العالمي، عمان ـ الأردن، عام 2008م، حاشية الصفحة .26

[6] ينظر: أوليفي روبول: هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي ؟ ترجمة: محمد العمري، مجلة علامات في النقد، الجزء الثاني والعشرون، المجلد السادس، ديسمبر 1996م، ص76 – 77.

[7] سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 26 – .27

[8] طه عبد الرحمن :اللسان والميزان أو الكوثر العقلي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998م ص 265.

[9] ينظر: طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو الكوثر العقلي، ص 265 – 266.

[10] عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، 2003م، ص58.

[11] ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، ص 130 .

[12]عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ، 2004م، ص 456 – .451

[13]ينظر: أوستين: نظرية أفعال الكلام، ترجمة: قنيني، د–ط، إفريقيا الشرق، المغرب، 1990م، ص .134

[14]ينظر: طه عبد الرحمن: اللسان والميزان والتكوثر العقلي، ص .269

[15]ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص 135.

[16]المرجع نفسه، ص 133.

[17] ينظر: الإمام أبو زهرة: تاريخ الجدل، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، عام 1934م، ص 7 – 8.

المنارة للاستشارات

[18] سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 43 - 44.

[19] ينظر: عمر بوقمرة: تطبيقات عبد الله صولة لنظرية الحجاج في اللغة على القرآن؛ المشروع، والمنجز، والمنتقد، الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2018، ص 49 وما بعدها.

[20] محمد سالم ولد محمد الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الثامن والعشرون، العدد الثالث، مارس، 2000م، ص 61 .

[21] سورة التحريم، الآية 1.

[22] سورة الأحزاب، الآية 70.

[23] سورة البقرة ، الآية 40.

[24] سورة النمل،الآية 14.

[25] سورة الأنعام ، الآية 93.

[27] ينظر: عبد الله صولة : الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، الجزء الثاني، ص 44-45.

[28] سورة سبأ، الأية 28.

[29] أبو الحسين مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، اعتنى به: أبو صهيب الكُرَميّ، د . ط، بيت الأفكار الدولية، د، ت، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسح الملل بملته، رقم: 153، ص85.

[30] سورة الحجرات، الآية 1.

[31] سورة الحجرات، الآية 2.

[32] سورة الحجرات، الآية 6.

[33] ينظر: محمود المصري: العشرة المبشرون بالجنة، الطبعة الأولى، دار الإمام مالك، عام 2005م، ص8.

[34] سورة المائدة، الآية 110.

[35] أحمد سليمان ياقوت: علم الجمال اللغوي، د-ط، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1995م، ص 22.

[36] مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، علم المعاني، الطبعة الأولى، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ، 2000م، ص 111.

[37] سورة النحل،الآية 125.

[38] سورة طه ،الآيتان 43-. 44.

[39] سورة البقرة، الآية 256.

[40] ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، د . ط ، الدار التونسية للنشر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، د . ت ، الجزء الثاني عشر، ص26-32.

المنارة للاستشارات

[41]ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، اعتنى به وأخرج أحاديثه: محمد أنس مصطفى الخن، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، 2008م، الجزء الأول، ص.440

[42] سورة يونس، الآية.99

[43]سورة الغاشية،الآيتان21- .22

[44]ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، الطبعة الأولى، المطبعة المصرية، عام 1928م، الجزء الثاني، ص .51

[45]صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، د-ط، المكتبة الثقافية، بيروت، 1976م، ص229.

[46]سورة الحج، الأية .39

[47]صفي الرحمن مباركفوري: الرحيق المختوم، ص 230 .

[48] ناصر الدين الألباني: التعليقات الرضية على " الروضة الندية " للعلامة صديق حسن خان، تحقيق: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد، الطبعة الأولى، دار ابن عفان، القاهرة، 1999م، المجلد الثالث، ص 449.

[49] سورة الكهف، الأية 29.

[50]صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، ص .407

[51]سورة الأنبياء، الآية 25.

[52]سورة هود، الأية .50

[53] سورة الذاريات، الآية .56

[54]عبد العزيز بن عبد الرحمان الراجحي: شرح العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية، الطبعة الأولى، دار الفضيلة، الرياض، عام 2000م، ص 6.

[55] محمد خليل هراس: دعوة التوحيد، أصولها، الأدوار التي مرت بها ومشاهير دعاتها، الطبعة الأولى، دار الفتح، الشارقة، 1996م، ص .118

[56] سورة نوح، الآية .23

[57]محمد خليل هراس: دعوة التوحيد، ص .119

[58]سورةالأعراف،الآية 59.

[59]صفي الرحمان المباركفوري: الرحيق المختوم، ص .114

[60]سورة محمد،الآية 19 .

[61]عبد الرحمن بن ناصر السعدي: التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة – تعليق الشيخ عبد الله بن باز – رحمه الله – وضبط: علي حسن علي بن عبد الحميد، د – ط، دار الإمام مالك، البليدة، الجزائر، 1997م، ص 85.

المنارة للاستشارات

[62] أبو الحسين مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم: 1599م، ص 651.

[63] ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، مخالفة أصحاب الجحيم، تخريج وتوثيق: خالد العطار، د – ط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2001م، ص 16.

[64] سورة فاطر، الآية 32.

[65] محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الطبعة الثانية، إفريقيا الشرق، د – ت، ص 43 – 44.

[66] سورة الصف، الآيتان 2 – 3.

[67] سورة آل عمران، الآية 31.

[68] ينظر: ابن كثير تفسير القرآن العظيم، الجزء الرابع، ص539،540 .

[69] سورة المائدة، الآية 79.

[70] سورة الفرقان، الآية 30.

[71] ينظر: محمد الأمين بن مختار الشنقيطي، مذكرة أصول الفقه، الدار السلفية، الجزائر، د – ط، ص 38.

[72] ينظر: صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 216.

[73] سورة هود، الآية 88.

[74] عبد الله صولة: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، الجزء الأول، ص 50.

[75] سورة النحل، الآية 125.

[76] ينظر: عبد العزيز عتيق: علم المعاني، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2006م، ص 39.

[77] أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، تحقيق: محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، ص 35.

[78] السيد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تحقيق: حسن حمد، د– ط ،دار الجيل، بيروت، لبنان، د – ت، ص 43 – 44.

[79] ينظر: محمد أبو زهرة: تاريخ الجدل، ص 57.

[80] محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 37.

[81] ينظر: المرجع نفسه، ص 36.

[82] محمد التومي: الجدل في القرآن، د–ط، الشركة التونسية، تونس، 1980م، ص 244.

[83] المرجع نفسه، ص 63– 64.

المنارة للاستشارات

المصادر والمراجع:

[1] أحمد سليمان ياقوت: علم الجمال اللغوي، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1995م.

[2] أحمد الهاشمي:جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تحقيق:حسن حمد، د–ط، دار الجيل، بيروت، لبنان، د– ت.

[3] أوستين: نظرية أفعال الكلام، ترجمة: قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، 1990م.

[4] أوليفي روبول: هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي ؟ ترجمة: محمد العمري، مجلة علامات في النقد، الجزء الثاني والعشرون، المجلد السادس، ديسمبر 1996م.

[5]ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، مخالفة أصحاب الجحيم، تخريج وتوثيق: خالد العطار، د – ط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2001م.

[6]عبد الرحمن بن ناصر السعدي: التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة – تعليق الشيخ عبد الله بن باز – رحمه الله – وضبط: علي حسن علي بن عبد الحميد، د – ط، دار الإمام مالك، البليدة، الجزائر، 1997م.

[7] الإمام أبو زهرة: تاريخ الجدل، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، لبنان، عام 1934م.

[8]سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثامن، بنيته وأساليبه، الطبعة الأولى، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، إربد ـ الأردن، جدار للكتاب العالمي، عمان ـ الأردن، عام 2008م.

[9] عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج،د–ط، إفريقيا الشرق، المغرب، عام2006م.

المنارة للاستشارات

[10]صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم،د–ط، المكتبة الثقافية، بيروت، 1976م.

[11] طه عبد الرحمن :اللسان والميزان أو الكوثر العقلي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998م.

[12]ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، د ـ ت، الدار التونسية للنشر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، د ـ ط ، الجزء الثاني عشر.

[13]عبد العزيز بن عبد الرحمان الراجحي: شرح العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية، الطبعة الأولى، دار الفضيلة، الرياض،
عام 2000م.

[14] عبد العزيز عتيق: علم المعاني، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2006م.

[15] عمر بوقمرة: تطبيقات عبد الله صولة لنظرية الحجاج في اللغة على القرآن؛ المشروع، والمنجز، والمنتقد، الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن،2018م.

[16] عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، 2003م.

[17] ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، الطبعة الأولى، المطبعة المصرية، عام 1928م، الجزء الثاني.

[18]ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، اعتنى به وأخرج أحاديثه: محمد أنس مصطفى الخن، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، 2008م، الجزء الأول.

المنارة للاستشارات

[19] عبد الله صولة : الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية،د–ط، جامعة منوبة، كلية منوبة، تونس،عام 2001م، الجزء الأوّل.

[20] محمد الأمين بن مختار الشنقيطي، مذكرة أصول الفقه، د – ط، الدار السلفية، الجزائر، د–ت.

[21] محمد خليل هراس: دعوة التوحيد، أصولها، الأدوار التي مرت بها ومشاهير دعاتها، الطبعة الأولى، دار الفتح، الشارقة، 1996م.

[22] محمد التومي: الجدل في القرآن،د–ط، الشركة التونسية، تونس، 1980م.

[23] محمد سالم ولد محمد الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الثامن والعشرون، العدد الثالث، مارس، 2000م.

[24] محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الطبعة الثانية، إفريقيا الشرق، د – ت.

[25] محمود المصري: العشرة المبشرون بالجنة، الطبعة الأولى، دار الإمام مالك، عام 2005م.

[26] مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، علم المعاني، الطبعة الأولى، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، 2000م.

[27] ناصر الدين الألباني: التعليقات الرضية على " الروضة الندية " للعلامة صديق حسن خان، تحقيق: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد، الطبعة الأولى، دار ابن عفان، القاهرة، 1999م، المجلد الثالث.

[28] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، 2004م.

المنارة للاستشارات

[29] أبو هلال العسكري:كتاب الصناعتين،تحقيق: محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي،د–ت.

[30]RENAUD BENOIT: LE TEXTE ARGUMENTE , EDITION, LE GRIFFON D'ARGILE, QUEBEC, 1993 .

المنارة للاستشارات